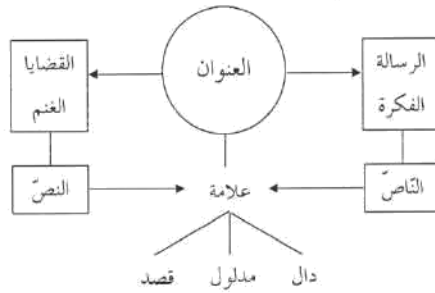


سيمياء العنوان في النقد الجزائري الحديث

أ. بناجي ملاح¹

تتركز دراسة النَّقْد لسيمياء العنوان على استقصاء الأبعاد الدلالية، و رصد الفضاءات الجمالية، والفكرية، والعاطفية، و استبطان مختلف الإشعاعات، و الإبداعات التي يحتلها العنوان، باعتبار أن السيمياء - زيادة على أنها منهج - هي ممارسة في التأويل «جاءت لتفسير الرموز، و فكّ الألفاظ اللغوية المتصلة بالدلالة النوعية، لكل سمة عبر الشبكة اللغوية المستخدمة في خطاب من الخطاب»¹ الشعرية و السردية. و القراءة السيمائية للعنوان تابعة من قابلية «العنوان العلامة»² للتأويل الدلالي، بالنسبة للمتلقى، وخاصة و أن هذه العلامة تتكوّن من «دالّ و مدلول و قصد»³. هذا القصد يجعل من العنوان مستودعاً للعديد من الإشارات و مخزناً للكثير من الاختلالات، تجعل بينه و بين النصّ و النَّصّ عدة صلات قويّة، تقضي إلى ما يضطرب في النَّصّ من قضايا و قيم، و تحيل إلى ما يريد الكاتب إرساله إلى القارئ من أفكار، و رسائل ليحتضنها بقوة، كي تنير له معالم الخطاب و تضيء له دروبه و تمكّنه من ملتوياته. و يمكن صياغة العلاقة الجدلية التي تربط العنوان بالنّصّ و بالنّصّ وفق الشكل الآتي:



نفهم من الشكل السابق أن العنوان ليس إشارة منطقيّة مسطّحة، و ليس كلمات معجمية هامة لا تحيل إلا على نفسها، و ليس إجراء منهجياً تقتضيه طبيعة النَّصّ ليحفظ لها كيالتها، و يصون حماها، فلا نفقد بموجب

¹ - أستاذ مساعد مكلف بالدروس - قسم اللغة العربية و آدابها - كلية الآداب و العلوم الإنسانية - جامعة سيدي بلعباس - الجزائر.

سيميائية العنوان أ. بناجي ملاح

ذلك هوية النص من بين سائر النصوص، وإنما هو «شكل ذي امتياز»⁴، ينشر إشعاعاته في نفس القارئ قبل وأثناء القراءة وبعدها. له كيانه الخاص بذاته، و له كيانه المشترك مع النص و النصّ.

من بين المقاربات التي اهتمت بسيميائية العنوان في النص الروائي؛ تذكر مقاربة الناقد «رشيد بن مالك»، في إطار دراسته الأكاديمية: «السيميائية بين النظري و التطبيق: رواية توار اللوز» نموذجاً. بعد أن أوضح الناقد العلاقة التكاملية و الترابطية التي تحكم العنوان و النصّ، بحيث أن الأول يطن و الثاني يقسّر، ينتقل إلى ذكر بعض الميزات التي اتّسمت بها طبيعة العنوان، منها أن «عنوان الرواية يتقدّم كسند مستقل لا يملك من مضمون دلالي سوى ما يحثّه له القاموس، و مع ذلك يبقى خاضعاً لاحتمالات دلالية مختلفة»⁵. هذا يرجع إلى كون محتوى العنوان ليس قرأً، و لا نستطيع ضبط أبعاده دلالياً مستقلاً عن النصّ، فدلالتيه تتشكّل و تنمو في إطار الصلات البنائية التي ينشئها مع باقي العناصر المكوّنة للعمل الروائي، و كلّ التغيّرات و التوتّعات الدلالية فيه تحقّقت بفضل النموّ السردّي و الخطابي للرواية؛ و كلّ هذا يسوقه الناقد ليؤكد أن نصّ الرواية أداة فعّالة في إنتاج العنوان، و بدونه يصير عقيماً لا معنى له إلا ما توحى به ألفاظه المعجمية دون مرجعية أو مقصدية.

إن وقت ولادة توار اللوز (العنوان) توقّف بالقول براعمه، ليعلن الحزن الذي يسيطر على القرية، ويتّبين لماذا لم تتمّ الولادة الحقيقية لعنوان النصّ في هذه اللحظات التي وصل إليها السرد، و اكتشف كذلك توقّف البنية النصّية عن إنتاج و توليد المعنى. هذه الحالة المحيية إلى موت العالم، سننتفض لتعيش تحولات عتيقا في نهاية الرواية، بحيث ينبثق التوار (عالم الطبيعة) بشكل متنسّق و متزامن مع ولادة الحملان (عالم الحيوان)، و مع فكرة إيجاب «قبيلة من الأطفال»، و «قارة من البنات الطنّيات»، و كلّ هذا وقع في الربيع⁶. بهذا التحليل الذي استغرق أربع صفحات يمكننا الناقد من إدراك أن توار اللوز كعنوان يقدم «أقصى قدر من الأفكار بأسطة كلمات قليلة»⁷. و يصبح بمثابة «اللمحة الدالة»⁸ المفتوحة على التّأويل.

ما لاحظناه في مقاربة الناقد أنّه في بداية التحليل أكّد على أن نصّ الرواية هو الوسيلة الحاسمة في نموّ العنوان، أي لا حياة للعنوان إلا بالنصّ، إلّا أنّه في القسم الأخير يثبت بعض تداعيات العنوان، مثل: تجلّي الصبح المتنفس، التبالق الفجر المنتظر، تبعث الأمل المحاصر، انطلاق التناؤل و إدبار التناؤم، الإصرار على النماء و تحدي الذبول، الإعلان عن ميلاد الإنسان من جديد و واد الشقاء العنيد بعد جهد جهيد. و بهذا التّأويل يكشف بطريقة غير مباشرة عن إمكانيّة العنوان للروح بإمداداته كوحدة مستقلة تنبئ عن ذاتها، و عن رؤية الكاتب و محور العمل الروائي.

و في الكثير من الأوقات كانت العناوين هي المشهر بالنص و بالكاتب، و المرغّب على فعل القراءة، و المشوق على خوض مغامراته، و الباعث على التّجمل بالصبر والاستمرارية من أجل الاستغراق فيه و الغوص في أغواره السحيقة، و هذا لا يكون إلا إذا كان الاختيار للعنوان قائماً على عدة أسس قوامها الدقة، و الإثارة، و الإبلاغ، و الإيجاز، و الشمولية، و التصوير، و ما يقال على العنوان يقال على الافتتاحية و الإهداء و التوطئة و الخط و علامات الوقف.

و ليس بالأمر العجيب أن يتأسس «علم العنوان» (TITROLOGIE)، منها الكتاب وبخاصة الأوباء إلى فعل إنتاج العنوان، و أنّه عملية تتطلب اقتداراً و كفاءة و ثقافة و طول تركيز و تمعن، و عادة ما تكون بعد عملية الانتهاء من كتابة النصّ.

سيمبائية العنوان أ. بناجي ملاح

إذا كان العنوان الذي وقف عنده الناقد السابق ذو طابع طبيعي راسم إلى التجرد والأمل، فإن العنوان الذي تأمله الناقد "الطاهر روائية" ذو طابع مرتبط بعالم البشر، وذلك في إطار دراسته "القضاء الروائي في (الجازية و الذراويش)". دراسة في المعنى والمبنى.

يعتبر الناقد أن هذا العنوان من «الغناوين الساحرة التي تخزي القارئ و تشوقه، إنه عنوان مليء بالوعود، و مثقل بالذكريات، ينظر إلى جبهتين متعارضتين: المستقبل والماضي، ما سيكون، و ما كان، فهو شوق إلى ما سيحدث، و حنين إلى ما فات»⁹.

هذه بعض الأبعاد الدلالية و الرمزية للعبارة التي تضمنها العنوان. و بدء العنوان بـ«الجازية» ليس ارتجالاً أو صدفة و إنما هذا يرجع إلى كون «الجازية» في الرواية «تشكل البؤرة أو المركز الذي تدور حوله محاور النص، و منه تتوالد معانيه، و تتناسل دلالاته»¹⁰، فهي الأصل الذي ترتوي منه باقي الفروع.

يقف الناقد بعد هذا عند أبعاد الجمع بين «الجازية و الذراويش» في عنوان الرواية «الكلمتان تتكاملان و تتناظران من حيث دلالتهما على عناصر و مواقف أساسية يتكون منها النص الروائي. و يلاحظ أن الكاتب لم يكتف بالجمع بين الجازية و الذراويش على مستوى العنوان، بل استمر يجمع بينهما على مدى العتس الحكائي للنص، فكل ذكر للجازية لا بد أن يتبعه في الغالب ذكر للذراويش و كل موقف يظهر فيه الذراويش لا بد أن تلوح فيه الجازية»¹¹ فهما متلازمان.

و هكذا يؤكد الناقد ما بيّنه «رشيد بن مالك» على أن العنوان يعفده غير قادر على تكوين وسطه الدلالي. و أن النص بدون عنوان يفقد لافته الإشهارية، و يضع هويته و يكون عرضة للتوبيان، و به يتحقق للنص العتبة التي يدخل منها القارئ إلى محيط النص، حاملاً عة أسئلة لا يجيب عنها إلا فعل القراءة، و يقع بعد ذلك التطبيق عوض التناقل بين القضاء المرجعي و الزمن الذي تحيل عليه الجازية و الذراويش، و بين القضاء الروائي و زمنه الذي يحيل على القرية و الحاضر.

المقاربة الثالثة في إطار سيمبائية العنوان نسوقها للدكتور "عبد الملك مرتاض"، وهي مرتبطة برواية "الار للطاهر وطار". و لفظ الار الذي هو عنوان الرواية، يعتبر جزءاً من النزعة الشعبية التي صبغت نص الرواية كما يراه الناقد. و لا يذهب الناقد مبانرة إلى الكشف عن دلالات العنوان و إنما يقف عند:

- طبيعة هذا اللفظ.

- أصل الوضع لهذا اللفظ.

- معانيه في العامية الجزائرية.

- معانيه في المعاجم الفرنسية.

بعد ذلك يؤكد الدكتور على النزعة الشعبية التي يصطبغ بها العنوان: شكلاً و مضموناً، و مسطحا و دلالة، و في الأخير يبين سبب إثار الروائي لهذا العنوان الشعبي. و يرى الناقد أن الأمر يرجع إلى «دلائله القوية و يسر سيرورته بين الناس في الجزائر خاصة، يضاف إلى ذلك، من حيث المضمون الخالص، أن الناس الفوا هنا يطلقونه على شخص، كما أسلفنا، ليق أو شرير أو ذي أطمار بالية، أو كل شاطر ظريف، أو ذكي خبيث، أو متطير به في المأقط و المقامات»¹².

و تشير إلى أن قراءة الناقد للفظ "الار" الذي هو عنوان رواية للطاهر وطار و رد في إطار دراسة المعتقدات الشعبية في الرواية. إلا أن هذه الانتفاة إلى أبعاد العنوان -على الرغم من أجازها- نلج فيها أن

مجلة الآداب و العلوم الإنسانية. العدد: 02

سيمبائية العنوان أ. بناجي ملاح

«هذا العنوان مرتبط ارتباطاً عضوياً بالنص الذي يعنونه، فيكمله و لا يختلف معه، و يعكسه بأمانة ودقة، فكأنه نص صغير، يتعامل مع نص كبير فيأخذ به، و يهيء له السبيل للمقرونية، لأنه يكشف عما أراد الكاتب أن ينفسه إلى متلقيه»¹³، فهو بمثابة الرسالة المختزلة لعدة أفكار و قيم و قضايا.

المقاربة الرابعة هي للناقد «بشير بو بجرة محمد» ففي دراسته «الزمن في الرواية الجزائرية (1970م- 1987م) و في سياقات مختلفة كان يغف عند العديد من عناوين الروايات مستقرنا تركيبتها المعجمية و مفسراً أبعادها الدلالية.

في الوقفة الأولى يشير الناقد أن روايتي «ريح الجنوب» و «اللال» هما أول روايتين عربيتين رافيتين فنياً في الجزائر، و مع ذلك فقد «حازتا في تركيبهما المعجمي للغواتين على نجاح فني معتبر من حيث الدلالة المعجمية، و ذلك لما تحمله كلمتا «ريح» و «اللال» من دلالة على القوة و التفرقة»¹⁴، لا يغف الناقد عند هذا الحكم العام، و إنما ينتقل إلى تحليله بعد تفصيله، فكلما «ريح» عندما ترد مفردة تفيد القوة و العنف و التحطيم.... كما أن مصطلح «اللال» يقصد به الرقم المثبت على ورقة اللعب، الذي إن وجد في يد أحد اللاعبين كان في مقدوره أن يسحق بقية الأوراق و يتغلب عليها»¹⁵، زيادة على ما لاحظته الناقد من قوة و تميز، و تحطيم على الكلمتين كعاملين هاميين لتحقيق الإقدام، و الانطلاق نحو الأمام؛ فإنه يرى كذلك أن هناك تغليات زمنية ترتبط بمداولتهما، تتقلب بين الماضي و الحاضر و المستقبل، غير أن الحاضر «يظل هو المهيمن عند الاحتكام إلى مداول الكلمتين ضمن السياق العام للروايتين»¹⁶، الذي يجسد الهم الوجودي زمناً وأحداثاً.

أما في ما يتعلق بالعنوان الأول فيبحث الناقد «بشير بو بجرة محمد» في بعض الأسرار الكاسنة وراء جمع الروائي بين «الجنوب» و «ريح». يستخلص من ذلك دلالة سياسية و إيديولوجية مرتبطة بتصراع المياسي والاقتصادي الزاهن، على الرغم من توظيفتها المنتزعة من البيئة في الجزائر، التي تكتنفها ريح فصلية كل سنة، غير أنها تنشر دلالاتها فوق خريطة الصراع العالمي بين الشمال الغني و بين الجنوب الفقير، كما تنشر دلالاتها فوق الساحة الجزائرية، و تنذر باحتدام صراع بين الشمال المالك للسياسة و المال و الجنوب الصحرراوي الواهب للطاقت و الخبرات.

الوقفة الثانية التي نقفها مع الناقد «بشير بوجرة محمد»، هي تلك المتعلقة ببحثه عن الدلالة المعجمية اللغوية و صلتها بالزمن، الموجودة في العديد من عناوين الروايات مثل: «بان الصبح» و «طوبور في الظهيرة»، و «نهاية الأمل» و «زمن النمرود» و «زمن الفلاحي» و «الحلق و الموت في الزمن الحزلي» و «ليلة امرأة آرق» و «ليلة أمحمد العسكري» و «آه من الجرح... آه يا زمن». «إن الصبح و الظهيرة و الأمل و الزمن و ليلة تشكل كلها في ذهن المتلقي إحياءات و تكتيفات زمنية نابغة من التسجام اللفظ مع المعنى ومن دلالاتهما الاصطلاحية»¹⁸.

و هذا الحضور المكثف للزمن لفظاً و معنى ليس حضوراً اعتباطياً، بل يرمي كل ذلك «إلى إحلال نظام نصي قوامه جدلية منتجة ومخلقة للهم الوجودي»¹⁹، الذي يتصارع مع الزمن تارة منهزماً، و أخرى منتصراً. و بعد هذا استخلصنا من المقاربات النقدية السابقة حول سيمبائية العنوان ما يلي:

- الكشف عن طبيعة و نزعة العنوان.
- استقراؤه معجمياً: أفراداً و إجمالاً.
- البحث عن معاني ألفاظه في القرآن الكريم، و في اللغة العربية، و اللغة الأجنبية، و في اللهجة العامية.

مجلة الآداب و العلوم الإنسانية. العدد: 02

- تفسير دلالاته و ربطها بالنصّ و النصّ.
- تعدّد و تنوّع التّأويلات.
- الحرص على تمييز و تفعيل التّأويلات من النصّ و فضاءاته.
- استبطان الإحاعات و التّكثيفات الزّمنية فيه.
- ربطه بالمكان.
- البحث عن جذوره السردية أو الشعبية في التراث.

بهذا نرى أنّ جلّ المقاربات رأت في العنواين، و تعاملت معه باعتباره شفرة دالة على مكونات خطاب سرديّ معيّن، دون أن تصبح رويّتها بالجزء، و عينا منها أنّ «تأويل عنصر من العمل يختلف باختلاف شخصية النّاقّد، و مواقفه الأيديولوجية، و باختلاف الفترات. و لكي يتمّ تأويل عنصر ما، فإنّه يدرج في نسق ليس هو نسق العمل، و لكنّه نسق النّاقّد»²⁰، المرتبط بشروط القراءة الذاتية و الخارجية، الزّمانية و المكانيّة، العقديّة و الثقافيّة.

الإحالات:

- 1 - عبد الملك مرتاض، بين السّنة و السيميائية، مجلّة تجليات الحداثيّة، ع: 1993م، ص 17.
- 2 - المرجع نفسه، ص 84.
- 3 - أحمد حساني، العلامة في التراث، مجلّة تجليات الحداثيّة، ع: 2، 1993م، ص 32.
- 4 - رولان بارت، التحليل البنيوي للسرد، ترجمة حسن بحراوي و آخرين، آفاق، ع 8 و 9، 1998م، ص
- 5 - رشيد بن مالك، السيميائية بين النّظري و النّطبيقي، رواية توار اللوز، نموذجا، رسالة دكتوراة، 1995م، ص 162.
- 6 - ينظر: رشيد بن مالك، السيميائية بين النّظري و النّطبيقي، رواية توار اللوز، نموذجا، ص 167.
- 7 - شور المرتجي، سيميائية النصّ الأدبي، ص 24.
- 8 - نظرة الإفريش في نصرة الفريش، المظفر بن الفضل العلوي، تحقيق: نهى عارف الحسين، 1976م، ص 19.
- 9 - الطاهر روابنة، الفضاء الروائي في الجزائريّة و التّراويل لعيد الحميد بن هدوقة، دراسة في المعنى و المبنى، المساعنة، ع 1، 1991م، ص 14.
- 10 - المرجع نفسه، ص 14.
- 11 - المرجع نفسه، ص 14.
- 12 - عبد الملك مرتاض، عناصر التراث الشعبي في اللّاز، دراسة في المعتقدات الشعبية، د.م.ج، 1987م، ص 10 و 11.
- 13 - عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردى، معالجة لفتكينة سيميائية لرواية "اللقاق المدقّ"، ص 277.
- 14 - بشير بو بجرة محمّد، الزمن في الرواية الجزائريّة، (1970م-1986م) رسالة دكتوراة، 1991م، ص 368 و 369.
- 15 - المرجع نفسه، ص 369.
- 16 - المرجع نفسه، ص 370.
- 18 - بشير بو بجرة محمّد، الزمن في الرواية الجزائريّة، ص 371.
- 19 - المرجع نفسه، ص 371.
- 20 - تزيّفيّام تودوروف، مقولات السرد الأدبي، ترجمة: الحسين سحبان و فؤاد صفا، مجلّة "آفاق"، ع 8 و 9، 1988م، ص 30.